القوط والأمبراطورية الرومانية

حتى نهاية القرن الرابع الميلادى

أصل القوط — موطنهم — هجرتهم إلى البحر الأسود فى القرن الثانى الميلادى — احتكاكهم بالأمبراطورية الرومانية — إنقسامهم إلى شرقيين وغربيين — القوط الغربيون فى داكيا ووصول المسيحة إليهم على يد أوليفلاس القوطى — القوط الغربيون والأمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى .

* * *

يعتبر عنصر القوط (Goths) أعظم قبائل الجرمان الشرقيين إطلاقا ، فهم أكثرهم عددا وأشدهم خطرا على أوربا ، عبروا كأغلب أقرانهم من اسكندناوة ، منذ الزمن السحيق ، وذلك قبل القرن الرابع قبل الميلاد[1] ، واستقروا عند مصبات الأودر والفستولا حالين محل الروجيين والوندال ، ويحتمل أن وصول القوط قد أدى إل تحرك القبائل الجرمانية الأخرى نحو الغرب[2] .

وقد ذكر بثياس (Pythias) الرحالة الأغريق المرسيلى القديم ، وهو من معاصرى الاسكندر المقدونى ، أن هناك شعبـــا يعرف باسم القوط (Guttones[3]) يقيم فيما هو بروسيا الشرقية الحالية أى فى الركن الجنوبى

---

(١) Painter, p. 21; Moss, p. 44.

(٢) Lot, p. 75

(٣) ذكر اسم القوط بأشكال مختلفة منها : Gothones , Gotenes ; وكلمة Guttones ترادف الكلمة القوطية (Gut - Thinda) بمعنى الشعب القوطى .
Hodgkin, I, p. 34

الشرقى من ساحل البحر البلطى وحول خلجان دانتزج الحالية ، ويعمل هذا الشعب فى تجارة العنبر الذى يجمعه من سواحل البحر[1] . وكان بثياس قد قام برحلة عام ٣٤٥ ق.م ولم يسمع عن هذا الشعب بأكثر من هذه العبارة لمدة أربعة قرون بعد ذلك . ويؤكد المؤرخ الرومانى القديم بلينى Pliny المتوفى عام ٧٩ م ؛ بأن هؤلاء لم يزالوا يقيمون حيث هم فى أيامه ، كما أن تاكيتوس (Tacitus) أعظم مؤرخى الرومان والمتوفى حوالى عام ١١٧م ، أورد أسم القوط (Gothones) فى معرض حديثه عن الجرمان وقال فى الكتيب الذى وضعه عن جرمانيا (Germania) بأن نظام الملكية قام ونما بين القوط أكثر من غيرهم من العناصر الجرمانية[2] .

وموطن هؤلاء القوط الأصلى هو شبه جزيرة اسكندناوة فى السويد بصفة خاصه ، وكانت تعرف باسم جزيرة سكاتزيا او جزيرة سكين (Scandzia,[3] Skane) وظلوا فترة من الزمن فى المنطقة المعروفة باسم (Gothiscandza أو Gothland) جنوب السويد ، ثم عبروا إلى الساحل الأوربى[4] ، ورغم أن هذه المنطقة قد عرفت باسم العنصر المعروف باسم جوتر (Gauter) إلا أن هذا العنصر الأخير قريب الشبه من القوط مما يحمل على الظن بأن الاسمين لمسمى واحد ، كذلك يدل اسم جزيرة جوتلاند (Gothland[5]) فى البحر البلطى ، على أن القوط أقاموا فيها فترة أو كانوا يسكنونها ، وكانت قديما تعرف باسم جوتلاند (Gutland) ومما ورد فى الأغانى (Sagas) الشمالية ، وأشعار الأنجلوسكسون ، أن شبه جزيرة جوتلاند (Jutland)

---

(١) Courcelle, p. 5, Mommsen, III, p. 430 ; Tacitus, P.339.
; Hodgkin, I, p. 34; Bradley, p. 1 — 2 ; Tacitus, p. 336 (٢)
Encycl. Brit., Art. "Goths"
Taylor, pp. 102—10; Hodgkin, I, p. 33 (٣)
Deanesly, p. 26 (٤)
(٥) تقع هذه الجزيرة بين خطى عرض ٥٧° ، ٨ ٥° شمالاً وتخضع حاليا للسويد .

كانت .قديما (موطنا لفرع من القوط يعـرف باسم Hréth- Goten أو Reidhgotar[1]).

* * *

وعندما وصلت جموع القوط إلى الساحل الأوربى، استقروا قرب بومرانيا الشرقية حيث هزموا العناصر المقيمة بهـا والمعـروفة باسم (Ulmerugi) كما هزموا جيرانهم الوندال والروجيين ، وبعد فترة من الزمن هاجروا إلى سكيثيا (S cy thia) واستقروا فى المنطقة التى أطلقوا عليها اسم أيوم (Oium) شمالى البحر الأسود فى حوض نهر الدنيبر . وكان ذلك خلال الصف الثانى من القرن الثانى الميلادى تقريبا[2] .

ومن القبائل التى صحبت القوط فى هجرتهم ، وربما كانت خاضعة لهم أو مرتبطة بهم بحلف أو معاهدة ، قبائل الهيروليين Heruli ، والسكرين (Scirians) ، والتونكيلين (Tuncilinga) والجبداى (Gepidae)[3]. ويبدو أن هذه القبائل كانت أقرب إلى القوط من غيرها من فروع التيوتون[4] .

والملاحظ أن الرومان قد خلطوا بين القوط وشعب آخر يعرف باسم الجتيين (Getae) كان يسكن شمالى مصبات الدانوب ، إذ حدث على عهد الأمبراطور أغسطس (٣٠ق . م - ١٤م) ، أن نفى الشاعر أوفيد (Ovid) حيث عاش وسط ذلك الشعب ، وحين وصل القوط إلى هذه المنطقة فى القرن

---

(١) Bradley, pp. 7—8.

(٢) Encycl. Brit. ; Hodgkin, I, pp. Lo — 1

(٣) هناك رواية نقلهـا جوردين (Jordanes) المؤرخ القوطى فى القرن السادس الميلادى ، — ربما عن الأساطير والأغانى القديمة — مؤداها أن القوط حين انتقـالهم إلى الساحل الأوربى ، كانوا يركبون فى ثلاث سفن بقيادة ملك بريج (Berig) ، وحدث أن وصلت إحدى السفن متأخرة لثقل حمولتها ، ولهذا التأخر عرف ركاب هذه السفينـة باسم (Gepids) من الكلمة القوطية : (Gepanta) بمعنى البطء (Hodgkin, I, PP.33, 40; Lav. et Ram. I, p. 49

(٤) Bradley, p. 8.

الثالث الميلادى ، اختلطوا بالعنصر القديم ، ومن هنا اختلط على الرومان أن الاسمين لمسمى واحد حتى صاروا يطلقون اسم القدماء على الغزاة الجدد ، ولهذا أشباه فى التاريخ كأطلاق اسم البريطانيين القدماء مثلا (Britones) على الغزاة الجدد من الأنجلوسكسون ، ووقع فى هذا الخلط كذلك جوردان المؤرخ القوطى ، لأنه قرأ ما كتبه الرومان عن هذا الشعب ، والصواب أن الشعبين يختلفان جنسا ولغة[1]. ومنذ انتقال القوط إلى شواطىء البحر الأسود دخل الكثير منهم طوعا فى خدمة الأمبراطورية الرومانية فى الشرق ، فمثلا نجد أن منهم من عمل بوابا أو بناء أو ساقيا[2] .

ولم يكد يأتى عام ٢١٤ م حتى كان القوط قد انتشروا حول شواطىء البحر الأسود الشمالية ، ووجدوا أنفسهم لأول مرة وجها لوجه مع الأمبراطورية الرومانية ، وذلك على عهد الأمبراطور كراكالا Caracalla ـ (٢١٢ - ٢١٧[3]). ولما كان شأن هذه القبائل البدوية النقلة والاعتداء على المناطق الغنية ، نزولا على ما طبعوا عليه من الجفوة والغلظة وحب المغامرات ، ثم لحاجتهم للعيش بأية وسيلة ، فقد بدأت اغاراتهم[4] ، إلا أن الرومان ، وقد استشعروا خطرهم الداهم[5] ، حالفوهم حوالى عام ٢٢٥ م ، وقرروا لهم جعلا (Stipendia) سنويا نظير قيام القوط على حماية حدود الأمبراطورية ضد السارمات[6] (Sarmats) وهم البرابرة الذين يقيمون فيما وراء القوط . غير أنه حدث على عهد الامبراطور فيليب (٢٤٤ — ٢٤٩) ، أن قطع هذا الجعل فعبر أوستروجوتا (Austraguta أو Ostrogotha)

---

(١) Gibbon, II, p. 342 Bradley, p. 19 ؛ Hodgkin, I, N. A., pp. 98—100

(٢) Lav. etRamb., I, p. 56.

(٣) Encycl. Britt. ؛ Hodgkin, I, p. 43.

(٤) Deanesly, p. 26.

(٥) Cam. Med. Hist I, p. 39.

(٦) Hodgkin, I, p. 49.

ملك القوط[1] . ويدل اسم هذا الملك على أن فرع القوط الشرقيين كان قد تولى قيادة هذه الحملة . عبر استراجوتا نهر الدانوب ونهب ولايتى مؤيسيا (Moesia) على الشاطىء الجنوبى للدانوب وتراقيا . وقام القائد الرومانى السناتور دكيوس ، الذى صار امبراطورا فيما بعد ، على رأس جيش لدفعهم ، فرأى القوط ألا قبل لهم بمداهمة الرومان فانسحبوا فى هدوء وعادوا من حيث أتوا وعبروا الدانوب ، ويقال إن عددا كبيرا من الجنود الرومان قد انضم إلى القوط وحرضوهم على هجوم آخر بسبب تحقير دكيوس لهم ورميهم بالأهمال والتقاعد حتى طرد عددا كبيرا من جنوده لأنهم فى نظره غير جديرين باسم الجنود[2] . وحينئذ تشجع ملك القوط وأرسل قوة بقيادة قائدين قوطيين هما : أرجيت Argith وجوتثاريك (Guntharic) ؛ استطاع هذا الجيش أن ينهب بعض أجزاء من ولاية مؤيسيا ، بل حاصر عاصمتها مدينة مارقيان (MarcianoPolis[3]) ولم يجد سكانها بدا من مفاوضة القوط لرفع الحصار نظير دفع مبلغ كبير من المال فعاد القوط إلى أراضيهم[4]

ويبتدىء تاريخ القوط المحقق حوالى هـــذا العهد ، فقد تأسست الامبراطورية القوطية المترامية الأطراف جنوب روسيا وشمال البحر الأسود ، وفيها يجرى نهر دنيستر ، ويجاورهم من ناحية الشمال الغربى عنصر الفن (Finns) ومن الشرق الآلان (Alans) الفرس ، ولـكن يلاحظ

---

(١) الملك اوستراجوتا أو أوستروجوتا أول ملوك أسرة الأمالين (Amalings) وهى الأسرة الشهيرة التى انحدر منها ملوك القوط الشرقيين ، ولهذه الأسرة شهرة واسعة فى الحروب وهى سليلة بطل ظفر بلقب (Amala) أى العظيم ؛ ولقد برهن الملك أوستراجوتا على أنه جدير بحمل لقب أسرته ، فاشتهر بدوره بشدة مراسه فى الحرب وصبره فيها حتى لقب « بالصبور » ؛ توفى عام ٢٥٠ م . وأبرز سلالة أسرة الأمالين الملك ارمانريك الذى انتحر عام ٣٧٥ م . (Lav. et Ramb., I, b. 49) ؛ انظر ماجيل ص ١١ ، ١٨ و Bradley, pp. 13, 43; Hodgkin, I, pp. 43, 76—77.

(٢) Hodgkin, I, p. 49.

(٣) شيد الأمبراطور تراجان هذه المدينة تذكارا لأخته مارقيا Marcia .

(٤) Hodgkin, I, p. 50 ; Breadley, pp 54 - 26.

على هذه الإمبراطورية أنها كانت مفككة غير متماسكة الأجزاء[1] ، وبهذا الوضع أخذ القوط يلحون فى قرع بلاد الأمبراطورية الرومانية فتحركوا عام ٢٥٠ م بعد أن مرنوا على الحرب بالفرسان الثقيلة ، وتابعوا تخريبهم فى بلاد البلقان بقيادة ملكهم كنيوا أو كنيفا (Cniva و Kaiva[2]) وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة فيليب (Philippopolis[3]) حيث استمات الإمبراطور دكيوس فى الدفاع عنها ، وظل يحارب حتى قتل هو وابنه فى الحرب عام ٢٥١ م فى وقعة دبروجه (Abrittus) ، وفشل خليفته على العرش الأمبراطورى تربونيانوس جالوس (Trebonianus Gallus) فى دفعهم فسلّم لهم بالاستيلاء على البلاد التى فتحوها كما تعهد لهم بدفع جزية سنوية نظير عدم اعتدائهم[4] . غير أن الفوضى الحزبية التى تلت هذه الحرب ، فى بلاد الإمبراطورية ، قد تركت الميدان خاليا تحت رحمة البرابرة ، وعجز الإمبراطور فالريان (٢٥٣ — ٢٦٠) عن القيام بأى عمل فعال ، نظرا لانشغاله فى الحرب ضد الفرس فى أطراف آسيا الصغرى ، إذ حدث أن استولى الفرس على أرمينية وانطاكيا ، ولكنهم هزموا هزيمة شنعاء قرب الرها عام ٢٥٩ / ٢٦٠ م . وخلال هذه الفترة كان القوط قد استأنفوا غزواتهم ، فاستولوا على القرم ، وعبروا البحر الأسود وضربوا مدينة طرابزوند على ساحله الجنوبى ، بل أمعنوا فى ايغالهم فى بلاد الإمبراطورية وضربوا خلقدونية ونيقوميديا وغيرها ثم عبروا إلى أثينا ونهبوها ٢٦٧ م وجمعوا ما فى مكتباتها من كتب ، وأوشكوا أن يحرقوها ، لولا أن أحد عقلائهم نصح قومه بترك هذه الكتب ليتلهى بها الأغريق عن الانشغال فى الحرب[5] . كان ذلك على عهد الأمبراطور جاليانوس

---

(١) Deacsly, pp 27 - 76 Boiss, pp 8 - 9.

(٢) ليس هذا الملك من سلالة الملك السابق .

(٣) Hodgkin, I, pp. 52—35.

(٤) Deanesly, p.26 ; Lot p. 35 ; Bradley, pp. 26—9.

(٥) Bradley, pp. 31—33.

Gallianus (٢٦٠ — ٢٦٨) . وبعد مقتل جاليانوس على يد الحشاشين استطاع خليفته وهو الأمـــبراطور كلوديوس الثانى Claudius — (٢٦٨ — ٢٧٠) اليانونى ، أن يهاجم القوط وأخلافهم من الباستارن والجبداى والهيرولين عند ما كانوا يخرجون فى مدن موءيسيا . وفى وقعة حربية عنيفةقرب نيسس Naissus وهى نيش فىصربيا العليا — عام٢٦٩م ، لقى القوط صدمة عنيفة ، خسروا فيها نحو خمسين ألف من رجالهم ، ومن أجل هذا الظفر لقب الإمبراطور كلوديوس بقاهر القوط ـ Gothicus ـ ومع هذا ، فلم يستطع خلف كلوديوس وهو أورليان Aurel an (٢٧٠ — ٢٧٥) أن يتابع الزحف ، حقيقة انتصر على القوط ولكن انتصاره لم يكن حاسما ، وخسر كثيرا كما أن القوط أنفسهم قاسوا الكثير بسبب الحرب ، فتهيأت الأحوال من الجانبين للموافقة على عقد هدنة ومعاهدة ، منح القوط بمقتضاها مقاطعة داكيا (Dacia)[1] وتشمل ماهو ترانسلفانيا الحالية والجزء الغربى من المجر وغربى ولاشيا[2] ؛ وفى نظير ذلك يتعهد القوط بامداد الجيش الرومانى بفرقة من الفرسان القوط قوامها ألفا فارس . ثم إن الإمبراطور أخذ عندا من أبناء وبنات الأسر النبيلة القوطية كضمان لولاء القوط أو رهينة لينشأوا تنشئة رومانية فى رعاية الإمبراطور ، وبعد ذلك عيّن بعض شباب القوط فى مناصب عليا بالقصر الإمبراطورى وزوّج عددا من بنات القوط من كبار ضباطه . بهذا الارتباط أضحى القوط محالفين ومحافظين على المعاهدة لمدة نصف قرن تقريبا ، حيث استفادوا من حياة السلم فى داكيا وتأثروا بالحضارة الرومانية أكثر من أشقائهم الشرقيين المنتشرين فى وديان ليتوانيا الواسعة وجنوب روسيا[3] . وفى فترة الخمسين عاما منذ عهد أورليان ، كان تاريخ القوط فيها غير

---

(١) أضيفت هذه الولاية على عهد الأمبراطور تراجان .

(٢) Gibbon, I pp. 372—74, Courcelle, p. 10 ; Hodgkin, I, pp.5—6

(٣) Hodgkin, I, pp. 69—70, 73—4; Bradley, pp.34—7.

واضح . وأول خروج لهم بعد انقضاء هذه الفترة كان عام ٣٢٢ م ضد الإمبراطور قسطنطين الأكبر فهزمهم وأخضعهم حتى أنهم ساعدوه فى السنة التالية ضد منافسه ليكنيوس ، وقاد القوط فى هذه الحرب ملوكهم ، مثل أرياريك وأيوريك Ariaric, Aoric[1] . وبعد ثمانى سنوات حاربهم قسطنطين مرة أخرى وانتصر عليهم فطلب القوط مهادنتهم وعقدت محالفة ظل القوط بعدها نحو ٣٠ سنة لا يقلقون أمن الإمبراطورية[2] . على أنه حتى ذلك الوقت لم يكن العنصر القوطى قد هاجر بأعداد ضخمة إلى البلقان ، فلم تزل هناك إمبراطوريتهم الواسعة جنوب روسيا ...[3]

* * *

وعن انقسام القوط إلى شرقيين وغربيين ، فالمعروف أنهم منذ مطلع القرن الثالث الميلادى ، وهم على شواطىء البحر الأسود الشمالية كانوا قد انقسموا إلى فرعين كبيرين هما . القوط الشرقيون (Greutungs أو Greutungi والقوط الغربيون (Thervings أو Tervingi) . أقام الأولون شرقى نهر دنيستر بينما استقر الآخرون فى غربه ، ولا تعنى هذه التسمية سوى دلالتها على الوضع الجغرافى لهذين الفرعين[4] ، ولو أن من المؤرخين من أضاف إلى هذا التميز المكانى تميزا معنويا آخرا ، فيفسر كلمة (Greuthungi أو Greutungs) التى صارت فيما بعد (Ostrogoths) بمعنى القوط اللامعين من الكلمة (Auth) بمعنى اللامع ، وكلمة (Thervingi أو Tervingi) وهى التى عرفت فيما بعد باسم (Visigoths) بمعنى القوط العقلاء أو الراشدين[5] . ومهما كان التميز بين الفرعين فالثابت أن الحد

---

(١) Hodgkin, I, pp. 71 — 74

(٢) C. M,ed. H., I, p. 39 ' Bradley, pp. 40—41 ' Lot, p.p.35-6.

(٣) Hodgkin, I, p. 71 ; Deanesly, pp. 26—7

(٤) C. Med. H., I, p. 39 ' Moss, p. 44 ; Lav. et Ramb. I, p. 49. Bradley, p. 5.

(٥) Hodgkin, I, pp. 100—102; Lot, p. 50

الفاصل بين عنصرى القوط هو نهر دنيستر (Thyras) . والثابت كذلك أن القوط بشطريهم ظلوا يعملون معا ، كما وضح من الأحداث السابقة وأن العنصر الغالب فى الفريق الذى احتك بالإمبراطورية الرومانية كان من القوط الغربيين ، ولو أن الجميع يخضعون لسيادة عليا واحدة هى سيادة ملك القوط الشرقيين . ثم إن الغربيين هم الذين عقدوا المعاهدة مع الإمبراطور أورليان ، واستقروا بمقتضاها فى منطقة داكيا ، وهم الذين خرجوا على عهد قنسطنطين الباكر وحاربوه وانهزموا أمامه فعقدوا معه معاهدة . وكان من نتيجة الإقامة الطويلة فى ولاية داكيا — وتقدر بنحو مائة سنة من ٢٥٠ إلى ٣٥٠ م — أن الشقة قد اتسعت بين فرعى القوط[1] . ومن عجيب الصدف أن هذا التمييز الجغرافى بين فرعى القوط ، ظل واضحا حتى بعد تكوين دول القوط فيما بعد ، فكان القوط الغربيون فى تولوز فى الغرب بينما كان القوط الشرقيون ، إما فى المجر أو فى إيطاليا أى شرقى أشقائهم[2] .

ظل القوط الغربيون يخضعون لسيادة أشقائهم الشرقيين فترة طويلة ، وكان الشرقيون قد كونوا لهم إمبراطورية متسعة بلغت ذروة مجدها واتساعها خلال القرن الرابع الميلادى وذلك على عهد ملكها إرمانريك (Ermanaric أو هرمانريك Hermanric) الذى ولى العرش عام ٣٥٠ م وهو سليل أسرة الأماليين[3] . شملت هذه الإمبراطورية ماهو أوكرانيا الحالية تقريبا ، ولبعد صيت هذا الملك شبهه جوردين مؤرخ القوط ، بالإسكندر المقدونى ، وقالوا عنه أنه إسكندر القوط الشرقيين :[4] . ورغم

---

(١) Bradley, p. 38 ; Deânesly, p. 26 ; Hodgkin, I, p. 74.

(٢) Hodgkin, I p. 73

(٣) انظر ما سبق ص ٥ حاشية ر .

(٤) قامت امبراطورية القوط الشرقيين على حساب عنصر السارمات الأيرانى الذى كان قد حل قبل ذلك محل السكيثيين (Scythians) الأيرانيين ، شمالى الدانوب حتى نهر دنيستر ؛ وذلك منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، فانحاز السكيذيون إلى الأطراف عند نهر الدن (Tanais) =

خضوع القوط الغربيين لسيادة إرمانريك ، فإنهم كانوا مستقلين من الناحية العملية ؛ يرأس كل قبيلة من قبائلهم حاكم أو قاض ، من أنفسهم ، نظرا لأنه لم تكن لهم رئاسة موحدة ، وإن اعترفوا جميعا — ولو نظريا بالسيادة العليا لملك القوط الشرقيين[1] .

* * *

وفى داكيا وصلت المسيحية إلى القوط الغربيين وكذلك إلى بعض الشرقيين فى أوكرانيا[2] على يد المبشر القوطى أولفيلاس Ulfilas (٣١١ — ٣٨٠ م)[3] . يرجع هذا المبشر إلى أسرة يونانية الأصل كانت تقيم فى إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى ، حيث وقع جده القبادوقى أسيرا فى يد القوط حين غزوا آسيا الصغرى ونهبوها عام ٢٦٧م[4] . ولد أوليفلاس فى المنطقة التى كان يقيم بها القوط حوالى عام ٣١٠ أو ٣١١ م ، وأسماه أبواه إسما قوطيا ونشأه على النظام القوطى ، وعلى أثر هزيمة القوط أمام الإمبراطور قنسطنطين الأكبر ، عقدت محالفة بينهم وبين الإمبراطورية البيزنطية عام ٣٢٢ م ، وقدم أوليفلاس ضمن السفارة القوطية إلى القسطنطينية لمفاوضة الإمبراطور قنسطنطين فى شروط الصلح ، وكانت مهمته فى هذه السفارة القيام بالترجمة ، إذ كان يجيد الإغريقية بجانب القوطية ، وربما كان سبب مجيئه إلى بيزنطة أمرا آخر غير هذه السفارة ، فقد قيل

= وإلى شبه جزيرة القرم أمام السارمات ، توالت غزوات السارمات حتى القرن الأول الميلادى » وعند ما جاء القوط ، لجأ السارمات إلى بلاد الإمبراطورية ، الرومانية (Bradley, pp.30 39, 44—44 ; Lot, pp. 50—52 (Hodgkin, I, p. 76 ; C. Med. H. IV, pp. 183—4.

(١) Hodgkin, I, pp. 100—102 ; Bradley, pp. 39, 43—6.

(٢) Lecl. p. 170.

(٣) كتب اسم أوليفلاس بأوضاع مختلفة لكنها متقاربة : Ulphilas ' Wulfila ' Vulfila ' Wœlfen ' ومعنى هذه التسمية ، كما تدل عليه اللفظة الأخيرة ، « الذئب الصغير » (Lav. et Ramb., L, p. 59).

(٤) انظر ما سبق ص ٧ .

إنه كان من ضمن الرهائن الذين بقوا فى بيزنطة لضمان تنفيذ المعاهدة . وأيا كان سبب وجوده بالقسطنطينية ، فإن أوليفلاس أقام بهذه المدينة فترة من الزمن حيث تعلم وتثقف بالثقافة الإغريقية كمادرس اللاتينية[1] .

ولكن أوليفلاس قام بدور يشبه إلى حد ما ما قام به النبي موسى عليه السلام ، فرغم أن موسى تعلم حكمة المصريين وتربى فى بلاط فرعون ، فإنه عمل على إنقاذ قومه وهدايتهم إذ لم يقبل أن يعيش رافها مهديا وقومه فى ضلال وبؤس ، ولسنا نعلم بالضبط ، هل كان أوليفلاس يعتنق المسيحية قبل وصوله إلى القسطنطينية أم لا ، والمؤكد أن المسيحية كانت قد وصلت إلى نفر قليل من القوط قبل عهد أوليفلاس ، وأن أوليفلاس تحمس للمسيحية ورغب أن يكون رسولها بين قومه . ثم صار قسيسا فى بيزنطة (Reader or Rector) عام ٣٤١ وحين بلغ سن الثلاثين قرر بجمع إنطاكية الدينى بارشاد ايزوب Eusebius (٢٦٠ — ٣٤٠ م[2]) ، رئيس الحزب المعارض للبطريق الإسكندرى أثناسيوس ، تعيين أوليفلاس أسقفا ومبشرا بين القوط المقيمين شمالى الدانوب[2] .

ظل أوليفلاس نحو سبع سنوات (٣٤١ — ٣٤٨ م) ينشر المسيحية بين القوط فى إقليم داكيا حيث كثر أتباعه رغم اضطهاد ملكهم أثاناريك للمسيحية ، ولما اشتد اضطهاده كتب أوليفلاس إلى الإمبراطور قنسطنطين (٣٣٧ — ٣٦١ م) يطلب منه أن يمنح القوط وطنا داخل الإمبراطورية للخلاص من هذا الاضطهاد ، فاستجاب له الإمبراطور ، وجاء أوليفلاس مع بضعة آلاف من القوط المسيحين وعبروا الدانوب واستقروا قرب نيقوبوليس فى موءيسيا عند سفح جبال البلقان . وكان قنسطنطين معجبا

---

(١) Hodgkin, I, pp. 80—81 ; Bradley, p. 57

(٢) Barker (E) Alex. to Constantine, pp. 472—80

(٣) Bradley, pp. 47—8 ; Lot, p. 38 ; Deanesly, pp. 26—27

Hodgkin, I, p. 81 ; Lav. et Ramb., I, p. 60

بأوليفلاس ويتحدث عنه دائما باسم (نبينا موسى الثانى Our Second Mose) ظل هذا الفريق الموادع من القوط المسيحيين يقيمون فى تلك المنطقة عدة قرون فى هدوء ، يزرعون أرضهم ولا يشتركون فى الحروب العنيفة التى تدور حولهم ، ونظراً لبعد صيت أوليفلاس فى مهمة التبشير صار يعرف باسم رسول القوط أو حوارى القوط — (Apostle of the Goths) كما أطلق عليه جوردين (Jordanes) المؤرخ القوطى فى القرن السادس الميلادى : القسيس والمطران[1] .

ويلاحظ أن جميع القوط المسيحيين لم يغادروا داكيا مع أوليفلاس ، بل بقى عدد كبير منهم ، وازداد عدد المسيحيين بالتدريج ، حتى أنه حوالى عام ٣٦٩ م قرر أثاناريك اتخاذ اجراءات اضطهادية ضدهم ، ولا سيما وأن منافسة فريتجرن[2] ، كان مسيحيا أو يميل إلى المسيحيين ، ولما غادر أثاناريك البلاد وذهب إلى مرتفعات ترانسلفانيا ، لم تكن هناك ثمة مقاومة فى سبيل انتشار المسيحية ، وفى سنوات قليلة تحول جميع القوط الغربيين والشرقيين على السواء إلى المسيحية[3] .

كانت المسيحية التى اعتنقها أوليفلاس ونشرها بين القوط ، على المذهب الأريوسى نسبة إلى أريوس (Aruis) الاسكندرى (ت ٣٣٦ م) الذى كان أول من أثار الجدل حول طبيعة المسيح[4] ، وقرر بأن المسيح وأن اتصف بالألوهية إلا أنه مخلوق بأمر الآله الأب وهو لذلك أقل مرتبة منه ، ورغم ما ظفرت به هذه العقيدة من تأييد وخطوات رسمية بسبب تعضيد

---

(١) Deanesly, pp.26—7 ; Pirenne (H.) P. 25 Hadrill, P.23 ; Hodgkin, I, p. 83.

(٢) عن أثاناريك وفريتجرن انظر ما يلى ص ١٩ .

(٣) Hodgkin, I, p. 81 ; Bradley, p. 58.

(٤) عين أريوس قسيسا فى الاسكندرية عام ٣٠٢ م ، ولما أظهر دعوته نفاه البطريرق أثناسيوس . Bacycl. of Ethics & Religion. Vol. I. Art. Arianism.

الأسقف إيزوب — مستشار الإمبراطور قسطنطين الأكبر — فإن مجمع نيقيا قد استنكرها في المجمع المسكوني الذي عقد عام ٣٢٣ م[1] .

أما نتائج اعتناق القوط للمسيحية الأريوسية من الوجهة السياسية ، فلم تظهر إلا فيما بعد ، وحسبنا أن نقول إن الأريوسية كانت كريهة للأمبراطورية البيزنطية والكاثوليكية الرومانية ، وأعمق أثراً في تفكك الدول الجرمانية التي دانت بها ، من الاختلاف الجنسي أو الثقافي أو الحضاري بين الرومان والبرابرة .

على أن أهم ما قام به أوليفلاس خلال تبشيره بالمسيحية هو ترجمة الإنجيل إلى اللغة القوطية التي يجيدها ، وتدريب عدد من القوط ليخلفوه في مهمته الدينية . قضى جزءاً كبيراً من حياته في ترجمة الإنجيل ، وكان للقوط حروف أبجدية وكتابة بلغتهم ، لكنه كتب هذه الترجمة القوطية بحروف اغريقية كبيرة كما كان المألوف في كتابة الكتب حينئذ ؛ وفي حالة الأصوات القوطية التي يصعب التعبير عنها بالحروف الاغريقية ، عبّر عنها أوليفلاس في ترجمته بالحروف القوطية ، مع تغيير اشكالها حتى تبدو متفقة إلى حد كبير مع الحروف الإغريقية[2] .

وأقدم مخطوط للإنجيل المترجم إلى القوطية ، كتب بعد أوليفلاس بنحو ١٥٠ سنة ؛ ويحتمل أن أشكال الحروف قد تغيرت قليلا قبل هذا الوقت ، ولكن من السهل أن نرى الحروف الأبجدية القوطية هي نفس الحروف الأبجدية الإغريقية تقريبا مع إضافة ستة حروف جدد[3] .

---

(١) راجع فيشر (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز) جـ ١ ص ١٧ — ١٨ ؛ Lav. et Ramb., I, p. 60; Hodgkin, I, pp. 90—2; Thomson, p. 54; Davis, p. 22.

(٢) Hodgkin, I, pp. 84—86; Bradly, p. 61.

(٣) Hodgkin, I, pp. 84—5.

وتعتبر ترجمة أوليفلاس للإنجيل ترجمة جيدة بالنسبة للعصر الذى عملت فيه خين لم يكن من السهل فى القرن الرابع ، على القوطى أن يجيد الإغريقية لدرجة تمكنه من فهم نصوص الإنجيل . والترجمة الدقيقة من لغة إلى أخرى تقتضى عقلية رشيدة دربت على التفكير الدقيق ، غير أنه توجد فقرات قليلة لم يستطع أوليفلاس أن يوضح فيها المعنى المقصود من أصل النص ، فكثير من الكلمات التى وردت بالإنجيل ليس لها مقابل فى اللغة القوطية نظراً لأنها تشير إلى أشياء أو حوادث تتعلق بالحياة الحضرية ، أو تشير إلى أفكار وآراء تمت إلى طرق التفكير المسيحية ، وهذه جد غريبة على عقول الوثنيين . ولكى يتغلب أوليفلاس على هذه الصعوبة ، كان يترجم مثلاً كلمة كتابة (Writing) فى الإنجيل الأصلى إلى كلمة تدل على معنى الرسم أو التصوير أوالإشارة (Painting or marking) فى اللغة القوطية ، وكلمة القراءة (Reading) إلى ما يدل على معنى الغناء (Singing)[1] .

وليس من المعروف على وجه الدقة مقدار ما ترجمه أوليفلاس من الإنجيل . ذكر بعض المؤرخين القدماء أن أوليفلاس ترجم الإنجيل كله ما عدا سفر الملوك (Book of Kings) الذى تركه عمداً لأنه يعتقد أن قصص حروب بنى اسرائيل من الخطورة قراءتها عند قوم تغلب عليهم النزعة الحربية[2] ، ولذا خشى من تأثير هذه الحروب على عقول القوط . ويناقض هذا أن سفرى يوشع (Joshua) والقضاء (Judges) اللذين ترجمهما ، ربما كان لهما من الأثر فى إشعال الروح الحربية والرغبة فى الحرب أكثر مما يؤدى إليه سفر الملوك . ويحتمل أن هذا التفسير الذى ذهب إليه المؤرخ القديم غير صحيح ، والراجح أن أوليفلاس مات قبل ان يتم ترجمة الإنجيل[3] .

---

(١) Bradley, p. 62.

(٢) Lav. et Rémb., I, p. 60.

(٣) اكتشفت أهم نسخة من ترجمة أوليفلاس فى القرن السادس عشر الميلادى فى دير =

أما نهاية أوليفلاس ، فكانت بالقسطنطينية ، حين زارها عام ٣٨١ م بدعوة من الإمبراطور تيودسيوس الكبير ، وعند وصوله إلى العاصمة الإمبراطورية ، مرض ومات ، وكان تلميذه الذى خلفه فى مهمته هو أكسنتيوس (Auxentius[1]) .

هكذا كان انتشار المسيحية الأريوسية بين القوط . أما كيف اتخذ الغربيون لهم طريقا مستقلا عن أشقائهم الشرقيين ، فلم يحدث هذا إلا بعد انحلال امبراطورية القوط الشرقيين ، ومع ذلك فقد ظل التعاون والارتباط بينهما بشكل ما ، حتى بعد تأسيس دولة القوط .

تحطمت إمبراطورية القوط الشرقيين على يد الهون من المغول إذ أتاحت جموعهم الكاسحة حوالى عام ٣٧٠ م بقيادة ملكهم الخان بالامبر (Balamber) وحطموا فى طريقهم إمبراطورية الآلان الايرانية التى كانت تمتد من جبال الأورال حتى جبال القوقاز ، وفى قلب آسيا حتى بحر آرال[2] ولما عجز أرمانريك — اسكندر القوط الشرقيين — عن رد هذه الموجة المدمرة ، انتحر عام ٣٧٥ م بعد أن عمّر قرنا من الزمان .

ومن ثم انهارت امبراطوريته الواسعة ، فتفرق القوط الشرقيون إلى وحدات أربع :

= بمدينة فردن (Werden)، وتناولت هذه النسخة أيدى كثيرة ، حتى اشتراها الكونت حولا جاردى (De La Gardie) السويدى ودفع ثمنا غاليا عبارة عن كمية كبيرة من الفضة ، ولذا عرفت هذه النسخة باسم الكتاب الفضى أو المجموعة الفضية (Codex Argenteus) وهذه النسخة محفوظة الآن فى مكتبة جامعة ابسالا (Upsala) ، وتعد من أثمن ما تحويه مكتبات أوروبا ، فهى مكتوبة بحروف من ذهب وفضة على رق من الجلد القرمزى . أكتشفت نسخة أخرى من هذه المخطوطة فى القرن السابع عشر بألمانيا ، أما بقية النسخ الست ، فقد اكتشفت فى ايطاليا منذ نحو قرن . (Bradly, p. 64) .

(١) Bradley, pp. 63—4 ؛ Hodgkin, I, pp. 86—89

(٢) تقيم بقايا عنصر الآلان اليوم — ويسميهم العرب الآن — وسط جبال القوقاز ويعرفون باسم الأوستيين (Ossètes) وهم عنصر أشقر ذو قامة متوسطة Lot, P.52 ؛ Lav .et Ram. I, pm.59 .

١ — فريق لم يقبل الخضوع لسيادة الهون وهاجر بقيادة سافراكس والاثيوس (Safrax و Alatheus) ومعهما صبي يسمى (Wideric) وهو من الأسرة الآمالية الشهيرة . انتخبوه ملكا عليهم وتوجهوا غربا إلى الدانوب ، حيث انضموا إلى القوط الغربيين الذين كانوا قد سبقوهم(١) .

٢ — فريق توجه إلى شبه جزيرة القوم وهو الذى أطلق عليه كتاب بيزنطة القوط الأغريق : Gotho - Grecs(٢) .

٣ — فريق ثالث ظل ببلاده وانتخب له ملكا هو (Winithari أو Winthabaryis) حفيد أخى أرمانريك ، وهذا الفريق ثائر حاول طرد الهون وقاموا بتخريب بعض البلاد الخاضعة للهون وارتكبوا كثيرا من الفظائع(٣) .

٤ — فريق رابع لم يتبرم بسيادة الهون وملك هذا الفريق هنيمند (Hunimund) ابن أرمانريك ، ظل هذا الفريق يعترف بسلطة الهون بل حارب فى جانبهم ضد الفريق الثائر(٤) .

أما مصير القوط الغربيين الذين كانوا خلال النصف الأخير من القرن الرابع الميلادى جزءا من الأمبراطورية القوطية الشرقية ، ومن رعايا ارمانريك فإنه

---

(١) Pirenne (H.), p. 26 : Lot, pp. 58—59 Eyre, p. 58

(٢) Lot, p. 58

(٣) كان حفيد الملك ونيشارى هو الذى تولى الملك على الفريق الرابع المسالم للهون ، حوالى عام ٤٤٠م ، وذلك بإذن من ملك الهون . واسم هذا الحفيد ولامر Walamer غير انه لم يلبث أن خرج على الهون حين ضعف أمرهم بعد موت ملكهم أتيلا عام ٤٥٣ م واستطاع أن يهزم الهون . وكان له اخوان أشركهما فى الحكم هما : ودومر وتيودمر Widumer و Theudemer وفى يوم النصر على الهون أنجب الأخ الأخير ثيودمر ولدا هو ثيودريك الذى اشتهر أمره فيما بعد وصار ملكا على إيطاليا وأعظم ملوك القوط قاطبة Bradley, pp. 48—9

(٤) Bradley. p. 47

منذ وضح خطر الهون وبدأ هجومهم وثارت الشعوب الخاضعة للقوط الشرقيين، منح إرهانريك رعاياه من القوط الغربيين مزيدا من الاستقلال وحرية العمل، فسمح لهم بتدبير جميع شؤونهم بأنفسهم حتى في المسائل الخارجية كابرام المعاهدات او شن الحروب، من غير ضرورة لأخذ موافقة الملك، وكانوا حينئذ ينقسمون إلى ثلاث قبائل على رأس كل قبيلة رئيس أو قاض (Judex) وهؤلاء القضاة هم الأخوة الثلاثة [1]. أثانريك وفريتجرن والوى (Alawiw Fritigern, Athanaric) وكان أثاناريك أقوى الثلاثة، ويبدو أن الاثنين الآخرين قد سلما له بنوع من الرئاسة العليا [2]. بذل أثانريك جهدا كبيرا محاولا طرد الهون ولكنه فشل [3].

ورغم ما عرف عن أثانريك من الشجاعة وقوة المراس فى الحرب، إلا أن شهرته ارتبطت بالخداع والمكر أكثر من ارتباطها بالشجاعة. ورغب مخلصا فى المحافظة على سياسة أبيه فى محالفة الرومان [4]، غير أنه ارتكب غلطة كلفته وقومه ثمنا غاليا، ذلك أن بروكبيوس [5] أحد أقرباء الأمبراطور فالنس (٣٦٤-٣٧٨) قد خرج عليه وتمكن من طرده من العاصمة والاستيلاء على عرش الامبراطورية فترة من الزمن، طلب هذا المغتصب مساعدة جرمانية من القوط الغربيين، بمقتضى المعاهدة المعقودة معهم، فأسرع أثانريك وأرسل إلى تراقيا قوة قوامها نحو ٣٠ ألف مقاتل، اعترافا منه بالأمر الواقع، والملاحظ أنه لم يقد الجيش بنفسه، ايفاء للقسم

---

(١) Lav. et Ramb. I, p. 61

(٢) Bradley, p. 50.

(٣) Dennésly, p. 26

(٤) الاشارة هنا إلى روتستر أبى أثانريك الذى عرف باخلاصه وولائه للرومان حتى أنهم أقاموا له تمثالا بالقسطنطينية.

(٥) بروكبيوس سليل أسرة نبيلة من قليقيا (Cilicia) بآسيا الصغرى، اشتهر فى الخدمات المدنية والعسكرية على السواء، وقام أخيرا بثورة انتهت بانتزاع العرش لفترة معينة (Hodgkin, I, Pp. 139—144).

الذى قيل أن أباه لستصدوره منه قبيل وفاته ، ويقضى هذا القسم بألا يقود أبنه جيشا ضد الرومان . وفى عودة هذه القوة القوطية خربت فى طريقها ولايات تراقيا ونهبتها بموافقه الامبراطور القائم ، وحينئذ وقع مالم يكن فى الحسبان ، إذا جاءت الأنباء بمقتل بروكبيوس عام ٣٦٩م وعودة فالنس إلى عرشه[1] . وبدلا من أن يكف القوط عن نهبهم ويطلبوا الصفح من فالنس ، تمادوا فى تخريبهم ، فلم يكن هناك بد من العمل على إيقاف هذا النهب ، وتمكنت الجيوش الامبراطورية من قطع الطريق على القوط ومنع وصول التموين إليهم كما حالت دون عودتهم إلى الدانوب ، وضيقت عليهم الحصار حتى أجبرتهم على التسليم من غير قيد أو شرط لم يقتلهم الرومان وإنما استرقوهم وباعوهم كما سجنوا قوادهم فى أماكن نائية . وعندما وصلت أنباء هذه الكارثة إلى أثانريك بعث بسفرائه إلى القسطنطينية لا لطلب الصفح والمغفرة بتواضع وصراحة ، بل ادعى سلامة النية وأن كل ما فعله القوط الغربيون إنما هو ايفاء بشروط المعاهدة المعقودة بينهم وبين الرومان ، واستدلوا على سلامة النية والسذاجة بمساعدتهم للأمبراطور الذى اتضح أنه كان دعيا ومن ثم طالبوا بإطلاق سراح أسراهم . اقتنع فالنس وكاد يصفح ، غير أنه حين استشار أخاه فالنتنيان (٣٦٤ — ٣٧٥) امبراطور القسم الغربى من الامبراطورية ، نصحه بسرعة الهجوم على أثانريك فى بلاده داكيا[2] .

لبى فالنس نصح أخيه وحارب القوط الغربيين لمدة ثلاث سنوات وانتصر فى أكثر المواقع ، ولكنه لم يكن انتصارا حاسما وانتهت الحرب بالصلح ، ووافق أثانريك المخادع على أن يقطع الجعل الذى كان يتقاضاه زعماء القوط من الرومان بشرط اعتراف الرومان به ملكا على جميع القوط ، ورأى فالنس أن تعدل الشروط عن طريق المقابلة الشخصية مع سيد القوط الذى

---

(١) Ibid, p. 156.

(٢) Bradley, pp. 52—3.

ندا محترما فى نظره ، فاعتذر أثانريك عن استحالة انتقاله عبر الدانوب بمقتضى القسم الذى أخذه أبوه عليه بألا يعبر الدانوب ويطأ أرض الرومان[1] وفى نفس الوقت هدد باعتبار المعاهدة منقوضة إذا أدخل فالنس أرض القوط فى داكيا ، واقترح أن تتم المقابلة فى زورق وسط نهر الدانوب ؛ وهنا نجد بعض الطرافة فى أن أثانريك تحاشى التعرض أو الإشارة إلى كل ما يدل على اعترافه بهزيمته أمام الرومان ، ولا بد أن فالنس قد شعر بأن البربرى يسخر منه ولكنه لم يجرؤ على رفض الترتيب المقترح ، ووقعت المعاهدة وأخذ الطرفان رهائن لضمان تنفيذها ، ومن ثم عاد فالنس ودخل عاصمته دخول الظافر فى احتفال مهيب ، حيث نعته الخطباء بأنه « قاهر القوط الثانى[2] » .

شغل أثانريك بعد ذلك فى اضطهاد المسيحيين الذين كثروا بين رعاياه[3] كما انشغل فى حرب ضد منافسه فريتجرن[4] ، ولم يكد يأتى عام ٣٧٦ م حتى أنهى قضاة القوط أو زعماؤهم ما بينهم من منافسة ونزاع ، ولما كان أثانريك هو المتولى للقيادة العامة لجيش القوط جميعهم ، فقد فوجىء وهو على غربى نهر الدنيستر بعبور الهون على ظهور خيولهم ومهاجمتهم له ، فلم يستطع الثبات أمامهم وفر ، وحينئذ أرسل زعيما القوط الاخران : فريتجرن وألوى ، فى طلب الإذن من الإمبراطور فالنس ، لعبور نهر الدانوب ، إذ لم يعد باستطاعة القوط المقام فى داكيا التى هددتها جموع الهون العنيفة ، وعبثا حاول أثانريك فى حمل قومه المدبرين على مقاومة الهون ، ولذا رحل مع فرقة من جيشه نحو مرتفعات ترانسلفانيا فى الشمالى الغربى ، واختفى عن مسرح الحوادث نحو أربع سنوات

---

(١) انظر ما يلى ص ٣٣.

(٢) Bradley, P. 54.

(٣) Hodgkin, I, pp,, 177.

(٤) Ibid, p. 183.

أو خمس[1] . وفى خلال هذه الفترة أضحى منافسه فريتجرن الملك الفعلى للقوط.[2] .

انتظر القوط الغربيون الاذن من فالنس لعبور الدانوب ، فرارا من خطر الهون المحدق ، والذى يقترب منهم يوما بعد يوم ، وكان فالنس فى أنطاكيا مشغولا بحرب الفرس[3] ، حين استقبل قضاة القوط من قبل فريتجرن ، وشرح لهؤلاء القضاة مدى خطورة الهون ووعدوه بأن يكونوا من رعاياه المخلصين إذا منحهم وطنا فى تراقيا عبر الدانوب ، وكان لا بد من الإجابة بنعم أولا فى ذلك الظرف الدقيق ، ليس هناك فرصة للتردد أو المشاورة ، تردد بعض مستشارى فالنس فى السماح لهم لما قد يكون هناك من آثار سيئة قد لا تكون واضحة فى ذلك الوقت ، على حين أن البعض الآخر رأى أن هناك فائدة كبيرى فى الإذن لهؤلاء ، وذلك لحاجة الإمبراطورية إلى الرجال ، وهذه فرصة سانحة لإضافة نحو مليون من الرعايا فى لمحة عين ، انتهى الأمر بالموافقة ، وصدرت الأوامر إلى حكام الرومان عند الدانوب بعمل ما يلزم لنقل القوط عبر النهر ، وسرعان ما جمعت القوارب وبدأ النهر يموج بأعدادهم الزاخرة ، المتحرقة للعبور أمام خطر الهون ، حتى أن بعضا منهم قد غرق فى النهر لشدة الازدحام ولعل فى هذا ما يشبه تزاحم أهل بغداد على عبور الدجلة أمام خطر المغول فى القرن الثالث عشر فيما بعد ، استمروا يعبرون النهر عدة أيام أمام حملقة الجماهير وحراس الحدود ، وعبر القوط بنسائهم وأطفالهم وسائمتهم ، ولما كانت القوارب غير كافية أمام هذه الجموع الكثيفة ، فقد استخدمت الألواح الخشبية السميكة والقوارب المنفوخة وكذلك البراميل ، وقد حاول الرومان تعدادهم أثناء العبور فلم يتمكنوا ، فهذا شعب بأكمله يهاجر ، كان

---

(١) انظر ما يلى ص ٣٣ .

(٢) Bradley, p. 55.

(٣) Pirenne (H.), p. 26 ; Lot, pp. 59 ;

ذلك فى ربيع عام ٣٧٦م واستقروا بموافقة فالنس فى منطقة دورستورم Durostorum — وهى سيلستريا فى موءيسيا السفلى أو بلغاريا الحديثة كما أن فريتجرن عين قائدا فى الجيش الرومانى حتى يشعر زعيم القوط بأن له صفة رسمية فى الإمبراطورية[1] .

لم يكد القوط الغربيون يستقر بهم المقام كمعاهدين فى هذه المنطقة حتى بدأوا يتبرمون من سوء المعاملة التى لقوها على أيدى الرومان ، ولا سيما وقد جاءتهم الأنباء بأن أطفالهم سوف ينتزعون منهم كرهائن ، ويوضعون فى أماكن نائية بالإمبراطورية ، لأن الرومان رأوا اتخاذ مثل هذا التدبير لكى يحملوا القوط على الهدوء وعدم الاخلال بأمن الإمبراطورية . وحينئذ بدأ القوط يفكرون فى الانتقام حين نفذ هذا التدبير والواقع إن هذا التنفيذ لم يكن سوى إيفاء بالشروط التى فرضت على القوط نظير السماح لهم بعبور الدانوب[2] . على أن فالنس سرعان ما اكتشف غلطته الكبرى فى السماح لهؤلاء بالإقامة فى قلب الإمبراطورية ، فرأى اتخاذ إجراء آخر ليأمن شرهم ، وهو أنه أمر بتجريد الرعايا الجدد من سلاحهم ، إلا أن ثروة القوط التى جمعوها من منهوباتهم السابقة مكنتهم من رشوة الموظفين الرومان حتى تركوا لهم أسلحتهم ، كذلك أمر الإمبراطور بتوزيع القوط فى فرق مختلفة وفى جهات متباعدة .

وفى هذا الوقت وصل فريق القوط الشرقيين الذى لم يقبل الخضوع لسيادة الهون ، وصل بقيادة سافراكس والاثيوس ، وعند الدانوب التمسوا الإذن من فالنس للسماح لهم بعبور النهر ومنحهم ملجأ ، فرفض الإمبراطور حتى لاتتضاعف مشاكله ، غير أن القوط الشرقيين لم يستجيبوا

---

(١) Bury, I, p. 104 ; Lot, p. 59 ; Hodgkin, I, P. 245 ; Pirenne (H.), pp. 26— 27

(٢) Hodgkin, I, p. 253.

لهذا الرفض ، وعبروا الدانوب من أماكن خالية من الحراسة ، وتابعوا أسيرهم لينضموا إلى أشقائهم الغربيين(١) .

ورغم التوصيات الصادرة من الإمبراطور فالنس بحسن معاملة القوط وعدم التغالى فى بيع المواد الغذائية اللازمة لهؤلاء المعاهدين ، حتى يتمكنوا من الزراعة والإنتاج ، فإن تصرفات الحكام الرومان كانت لسوء الحظ الوقود المباشر لإثارة القوط ودفعهم للخروج على شروط المعاهدين ، فضلا عن عدم رضائهم عن الشروط التى فرضت عليهم ، فمثلا تطرف حاكما تراقيا وهما : ليكنيوس وماكسيموس (Lupicinus & Maximus) واستغلا حاجة القوط للمواد الغذائية إذ وجدا فى محنتهم فرصة للإثراء ، فاحتكرا شراء هذه المواد من المنتجين بأرخص الأسعار وباعاها للقوط بأثمان خيالية ، لدرجة أن كان القوطى يدفع ، كثمن لرغيف الخبز الواحد ، عبدا من عبيده أو عشرة أرطال من الفضة نظير الحصول على ماشية للذبح ، وغالبا ما أجبر القوط على أكل لحوم الكلاب(٢) .

لم يحتمل القوط الصبر على هذا الوضع . فقرروا الخروج على الرومان والثورة على فالنس(٣) ، وربما كان ذلك بتشجيع من الهون الذين حرضوهم(٤) ، ولم يكن القوط بحاجة كبيرة إلى من يثيرهم ، فسرعان ما عبروا جبال البلقان عام ٣٧٧ م ودخلوا تراقيا ومقدونيا فهرب قائد الحامية ليكنيوس — سالف الذكر — ولجأ إلى مدينة مارقيان قرب ثارنا ، وحينئذ قرر فالنس مغادرة آسيا الصغرى ، وعاد فى صيف عام ٣٧٨ إلى عاصمته حيث قوبل اسوأ استقبال بسبب تلك الغلطة الشائنة . ولذلك

---

(١) Pirenne, (H.), p. 26 ; Lot, pp. 58—59 ; Eyre, p. 24. Bradley, pp. 65, 67 ; Deanesly, p. 26.

(٢) Hodgkin, I, pp. 254 - 56 ; Bradley, pp. 67 - 68.

(٣) Moss, pp. 44 - 5.

(٤) Deanesly p. 26.

عول على إصلاح ما أفسد ، وأن يقوم بنفسه على رأس جيش لمهاجمة القوط ، وزاد فى حماسته أن الناس أخذوا يعيرونه بفعلته ويقارنون موقفه المتخاذل من موقف زميله فى الغرب وهو جراتيان بن أخيه فالنتنيان الذى أدرك خطورة الحال وعمل على متابعة نشاط أبيه ومشاريعه الحربية فهزم الجرمان عند الراين ثم هبط إلى الدنواب لينقذ البلقان من خطر القوط ، ووصل فى تقدمه إلى سرميوم عاصمة الليريا فى صربيا[1] ، أما فالنس فقد أسرع ووصل إلى أدرنة وقاد الجيش الذى يعسكر حول أسوار هذه المدينة ، وبينما هو فى مجلسه الحربى مع قواده يناقش الخطط جاءه رتشومر (Richomer) أحد قواد جراتيان موفدا من قبل سيده ليطلب إلى فالنس التريث حتى يصل جراتيان بجيشه ، غير أن المتملقين من قصار النظر ، ألقوا فى روع فالنس ألا يتيح الفرصة لقسيمه الغربى فى أن يشاركه مجد الانتصار على القوط ، والرأى عندهم أن يبادر بالدخول فى المعركة والانتهاء منها قبل وصول جراتيان ، ولم يرق هذا الرأى فى نظر أعظم قواد الإمبراطورية سباستيان (Sebastien) قائد المشاة فى الجيش الرومانى ، كما فنده فيكتور (Victor) السارماتى[2] قائد الفرسان . وحينئذ وصل قسيس مسيحى — يشك فى أنه أوليفلاس — فى وفد من القوط من قبل فريتجرن ، جاء وعرض على فالنس المفاوضة فى الصلح بشرط اعتراف الامبراطور بامتلاك القوط لتراقيا ، وهذه هى الرسالة الرسمية ، التى لا بد وأن تكون قد صدرت بموافقة القوط ، وهناك رسالة خاصة سرّية ، أبلغها القس إلى الإمبراطور ومؤداها أن فريتجرن يخشى ألا يحافظ القوط على ولائهم للرومان إذا ما أجيبوا إلى طلبهم فى يسر ، ولذا فهو ينصح الإمبراطور بأن يتظاهر بالقوة حتى لا تبدو سرعة موافقته دليل ضعف أو خور ولكن الرسل عادوا من غير إجابة .

---

(١) Deanesly p. 26 ; Perroy, p. 11 ; Lot, p. 61

(٢) Lot, p. 61 انظر ما سبق ص ١١ حاشية رقم ٢ .

وفى صباح ٩ أغسطس من عام ٣٧٨ م أودع فالنس أمواله داخل أدرنة وخرج لايلوى على شىء معتزما مهاجمة القوط الذين يعسكرون على مقربة منه ، وكان جيشه مفككا لا تزيد عدته عن عشرة آلاف مقاتل ، وبعد مسيرة نحو ثمانية أميال تحت أشعة الشمس المحرقة لاحت له مطالع عربات القوط التى يتحصنون وراءها ، فرتب صفوف جيشه واسعرضه استعدادا للمعركة ، وفوجىء القوط بهذه المباغتة ، فصاحوا صيحة تصم الآذان وهم ينشدون نشيدهم الحربى ، كعادتهم لبث الشجاعة قبيل المعارك ، أما فريق القوط الشرقيين فلم يكن حتى ذلك الوقت قد وصل إلى أشقائه بعد ، إذ كان على بعد عدة أميال من ميدان المعركة ، بحثا عن النهب والسلب ، فأرسل إليهم فريتجرن يستدعيهم على عجل ، ولكى يعمل فريتجرن على تأجيل بدء المعركة حتى يصل أشقاؤه ، اصطنع الحيلة والدهاء ، وأرسل إلى الرومان يطلب إليهم الدخول فى مفاوضات لتسليم القوط ، ونجحت الخديعة ووافق الرومان على أن يبعث القوط من قبلهم وفدا من كبار النبلاء القوط ، فأجاب فريتجرن بأنه يرغب فى الحضور بنفسه بشرط أن يرسل الرومان بعض كبار الضباط إلى المعسكر القوطى كرهينه ، حينئذ فرح الرومان ، وبدأوا يتناقشون فيمن يقع عليه الاختيار ، ولما وقع الاختيار على التربيون إكويتيوس (Equitius) رئيس حرس القصر وقريب الامبراطور ، أبى وأصر على عدم القيام بهذه المهمة المحفوفة بالمخاطر ، وحجته فى ذلك أنه وقع مرة أسيراً فى يد البرابرة واستطاع الهروب منهم لكنه لا يدرى ما يفعل به لو عاد إليهم ثانيا ؛ وحسم النزاع حين تقدم رتشومر رسول جراتيان ، وتطوع لهذه المهمة . وخلال هذه المناقشات الطويلة ، كان الجنود الرومان قد أخذ التعب منهم كل مأخذ ، لوقوفهم تحت أشعة الشمس لمدة طويلة ، حتى أصابهم الجوع والظمأ ، بينما القوط فى معسكراتهم .

وبينما كان رتشومر فى طريقه إلى المعسكر القوطى استدعى ثانيا إذ لم تعد هناك حاجة لذهابه ، لأن المعركة قد بدأت فعلا إذ حدث أن فرقة الرماة

الأيبيريه المنضمة للجيش الرومانى(١) . قد سئمت طول الانتظار فقامت بهجوم على العدو من غير انتظار أمر الإمبراطور فأبعدت عن آخرها . وفى ذلك الوقت وصلت فرق الفرسان من القوط الشرقيين . فأمر فريتجرن بدق الطبول إيذانا بالمعركة ، وحمل القوط حملة عنيفة، شبهها بعض المعاصرين بالصاعقة ، فشتتوا شمل فرسان الرومان ، وأحاطوا بالرجالة وضيقوا عليهم بحيث لم يستطيعوا استخدام أسلحتهم لشدة التصاقهم ببعض ، فذبحوا بالآلاف، وقتل الإمبراطور ، وظلت المذابح قائمة فى الجيش الرومانى ولم يوقفها إلا ظلام الليل ، وبقى القوط فى ميدان المعركة لعدة أيام بعد انتهاء المعركة وهم ينبهون الموتى دون أن يجرؤ أحد من الرومان على التقدم للبحث عن جثة الامبراطور(٢) .

تلك هى كارثة أدرنة وتعد فى تاريخ الكوارث المدمرة التى حلت بالأمبراطورية الرومانية ، الثانية بعد دبر وجه ، وإن كانت فظاعة أدرنة تفوقها ، فقد خسر الرومان ثلثى الجيش وصفوة القادة من مختلف الرتب أمثال سباستيان وتراجان وأكويتيوس وفالريان ، و ٣٥ آخرين من رتبة الكولونيل أو التربيون .

أردف القوط بعد هذه الوقعة بالتقدم نحو القسطنطينية وهاجموها بعنف وكادوا يقتحمونها لولا ظهور فرقة من الفرسان العرب ، كانت تعمل فى الجيش الرومانى . قامت هذه الفرقة العربية بهجوم خاطف مضاد زلزل مواقع أقدامهم

---

(١) الأيبيريون (Iberians) سكان مقاطعة أيبريا الاسيوية بين البحر الأسود وبحر قزوين ، ويحتمل أن هذه المنطقة كانت تابعة للفرس ثم أخضعها الرومان (أومان : الإمبراطورية البيزنطية ترجمة الدكتور طه بدر حاشية رقم ١ ص ١٩٠ ؛ Gibbon, III, p. 404) .

(٢) Lav. et Ramb., I, p. 61 ; Bradley, pp. 71-74 ; Pirenne (H.) p. 27 ; Lot, pp. 60 - 61 ; Courcelle, p. 11 ; Encycl. Britt. ; Hodkin, pp. 271

وألقى الرعب والفزع فى قلوبهم . ومما أفزع القوط ذلك المنظر الذى هالهم ، إذ رأوا أحد فرسان العرب وهو ينقض على فريسته ممن قتل من القوط ، وأخذ يشرب دمه ، فأيقن القوط أن القتال مع مثل هؤلاء ضرب من التهور والحمق . ومن ثم خارت قواهم فتراجعوا ورفعوا الحصار عن العاصمة وعادوا محملين بما نهبوا ، وأجاب الرومان على هذه الكارثة خلال السنتين اللتين تلتا الموقعة ، باقامة مذبحة شنعاء فى أبناء القوط من الشبان كان الرومان قد أخذوهم رهينة ، عند السماح للقوط بعبور الدانوب ، وكان هؤلاء الشبان يقيمون فى ولايات آسيا الصغرى ، أبدى الشبان القوط نوعا من التبرم والتمرد على سادتهم من الرومان على أثر وقعة أدرنة ، فأصدر يوليوس (Julius) وزير الحرب الرومانى ، وهو الذى تولى أمر الامبراطورية غداة مقتل فالنس وقبيل انتخاب خلف له ، أصدر أمره إلى حكام آسيا الصغرى بتفويض من السناتوا ، بأن يستدرج هؤلاء الرهائن إلى المدن حيث يحاط بهم فى الأسواق العامة ويذبحون عن آخرهم : ونفذت هذه الجريمة البشعة التى أساءت إلى سمعة الرومان مهما كان الدافع[1] عليها ، ومهما يكن من أمر الإنتقام الرومانى ، فإن كارثة أدرنه بلغت من الفظاعة ما حمل المؤرخ اللاتينى المتأخر (Ammianus Marcellinus) على أن يمسك عن ذكر تفاصيلها ، فجاءت أنباؤه عنها غامضة مبهمه ، وهى وقفة حسرة وألم تشبة تلك التى وقفها من بعده المؤرخ الإسلامى ابن الأثير حين أزال المغول دولة خوارزم شاه عام ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) .

أما المؤرخ الإنجليزى جيبون (Gibbon) فقد كان أحد الأوائل الذين لمحوا فى وقعة أدرنة عام ٣٧٨ م ، نقطة تحول هامة فى التاريخ ، على حين كتب المؤرخ (الفرنسى) فيكتور ديرى (V. Dury) فى تاريخه عن الرومان عند حديثه عن هذه الواقعة : « لم يبق شىء من روما ، لقد اختفت عقائدها ونظمها المدنية والحربية ، وكذا فنونها وآدابها ، وبدأ الغزو

---

(١) Bradley, pp. 76 - 9.

والقهر ، ووصل فريتجرن حتى أسوار القسطنطينية ، وبعد سنوات قلائل استولى الاريك على روما[1] »

كان لهذه المأساة أثرها البالغ فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية وفى مدنيتها بوجه خاص وفى تاريخ البرابرة ومستقبلهم بوجه عام ، ولو كان القوط يجيدون فن استغلال الفتوح والنصر ، لاستطاعوا بهذه الواقعة أن يطووا صفحة الإمبراطور الشرقية قبل أختها الغربية ، غير أنهم فشلوا فى الإفادة من هذا النصر الساحق .

هذا وتعتبر كارثة أدرنة نكبة حربية ، إذ لم يستطع الرومان بعدها أن يحشدوا جيشا قويا يمكن الاعتماد عليه فى قهر البرابرة ، وتعتبر من جانب آخر بداية جدية لفترة الصراع والحروب التى تلاحقت بعد ذلك وملأت تاريخ العصور الوسطى ، وتميزت بالعنف ، كما أضحت الفرسان الثقيلة العامل الحاسم فى تلك الحروب ، وتلك حقيقة واقعة ظلت قائمة حتى القرن الرابع عشر الميلادى[2] .

* * *

بمقتل فالنس فى أدرنة ، أضحى جراتيان حاكم الغرب ، الإمبراطور الوحيد على الرومان ، غير أن الأمور قد جرت منذ نحو قرن على أن الإمبراطورية لا يمكن إدارتها بواسطة إمبراطور واحد ، فاضطر لاختيار قسيم له فى السلطة وأجبر على أن يكون هذا القسيم هو القائد الرومانى والأسبانى المولد تيودسيوس ، ولعل تردد جراتيان فى اختيار تيودسيوس قسيما له ، يرجع إلى أن أبا تيودسيوس وسميه ، كان قد اشتهر أمره ونبه ذكره كحاكم فى بريطانيا وأفريقية ، فرأى جراتيان فيه منافسا خطيرا فى مطلع حكمه فتخلص منه بأن أجبره على الانتحار ، وبمجرد وقوع كارثة

---

(١) Lot, p. 61.

(٢) Moss, p. 45.

أدرنة قام حزب ينادى بتولية تيودسيوس الابن ، فتم اختياره وأعلن أغسطسا فى سيرميوم فى ١٩ يناير ٣٧٩ م[١] .

ومن حسن طالع الإمبراطورية الرومانية أن كان تيودسيوس هو خليفة فالنس ، إذ يختلف فى مشاعره عن يوليوس وزير الحرب الذى دبر الأمور قبل انتخاب تيودسيوس .

رأى تيودسيوس أن يعيد شيئا من سمعة الإمبراطورية الحربية قبل أن يدخل فى مفاوضة مع القوط ، حتى يلقى عليهم درسا يجعلهم يعترفون بأن الإمبراطورية لم تمت ، وأنه لم يزل يخشى بأسها ، فأسرع بإعادة تنظيم جيشه وإعادة الروح المعنوية له ، وذلك فى الوقت الذى كانت همة القوط فيه قد ثبطت ، وتفككت وحدتهم بسبب النزاع الذى دب بين صفوفهم ، ومغادرة بعض القوط وانضمام هذا البعض إلى الرومان ، فكلما شعر أحد من كبار القوط ، بإهانة تلحقه من قبل فريتجرن ، فارقة وانضم إلى الرومان ، وتيودسيوس خلال ذلك يرحب بهم ويغدق عليهم الجوائز والمناصب . من هؤلاء القائد القوطى المظفر موداهارى (Modahari) الذى عين قائدا فى الجيش الرومانى وإليه يرجع الفضل فى إحراز أعظم انتصار[٢] ظفرت به الإمبراطورية فى تاريخ وقائعها الحربية .

مات فريتجرن خلال عام ٣٧٩ م أو ٣٨٠ م ، وبعد وفاته ظهر أثاناريك مرة أخرى وعبر الدانوب ، ولسنا ندرى كيف استجاز لنفسه أن يحنث فى يمينه الذى أقسم بعدم عبور الدانوب ، لكن يرجح

---

(١) Lot, p. 62.

(٢) الاشارة هنا إلى الانتصارات التى ظفر بها الامبراطور تيودوسيوس عام ٣٧٩ على شراذم القوط الغربيين الذين تفرقوا يخربون وينهبون فى مدن تراقيا عقب واقعة أدرنة . وموداهارى هذا سليل ملوك القوط ، والغريب أنه على المذهب الأرثوذكسى على خلاف بقية القوط ، خدم الامبراطورية وأخلص لها (Bradley, pp. 79 - 80, Hodgkin, 1, pp. 301 - 303.

أن اعترف أغلب القوط بزعامته هو الذى دفعه إلى ذلك ، ولا سيما بعد وفاة فريتجرن .

وأول عمل قام به هو الاتفاق مع الرومان ، فدخل فى مفاوضة مع الإمبراطور تيودسيوس الذى دعاه إلى القسطنطينية ، فتوجه إلى العاصمة حيث استقبل بحفاوة ، وهناك أخذت مظاهر العاصمة ومباهجها بلبه ، حتى قال أنه كثيرا ما سمع بعظمة القسطنطينية لكنه لم يكن باستطاعته أن يتصور أو يصدق إلا بعد أن شهدها بنفسه ، وأن الإمبراطور آله يمشى على الأرض ، ومن يجرؤ على الخروج عليه فهو مذنب جزاؤه الإعدام . ولم تطل إقامة أثاناريك بالعاصمة فقد مات فى يناير عام ٣٨١ م[١] .

وانتهت المفاوضة بعقد معاهدة فى أكتوبر عام ٣٨٢ م بمقتضاها أقرت الإمبراطورية القوط على الإقامة فى منطقتى مؤيسيا وتراقيا بوصفهم معاهدين (**Foederati**) بالإضافة إلى منطقة بانونيا[٢] التى تنازلت عنها الإمبراطورية لهم قبل ذلك بعامين[٣] .

وبعد وفاة أثاناريك بخمس سنوات عادت فرقة القوط الشرقيين التى كانت بقيادة سافراكس وألاثيوس ، ولكنها الآن بقيادة زعيم جديد هو أوداثيوس (**Audathaeus**) .

عادت هذه الفرقة إلى منطقة داكيا بعد أن قامت بأعمال النهب شمالى ألمانيا وغربها ، وحاولت عبور الدانوب للدخول فى تراقيا ، غير أن الرومان هجموا عليهم أثناء عبورهم وشتتوهم قتلا وتغريقا ، ومن نجح فى الإفلات والعبور إلى الشاطىء الآخر سلم للرومان ، وبذلك صارت

---

(١) **Bradley, P. 80 ; Hodgkin, I, pp. 308 - 309 ; Lot, P. 61.**

(٢) تقع هذه المنطقة شرق ڤينا وشمالى بلغراد الحالية .

(٣) **Lot, p. 62.**

سلطة الإمبراطور تيودسيوس مبسوطة على جميع العناصر القوطية المقيمة داخل الإمبراطورية[1] .

أدرك تيودسيوس أن سياسة اللين والمهادنة أجدى على الإمبراطورية من سياسة العنف والقوة ، إذ وضح أمامه أن القوط الذين دخلوا الإمبراطورية بأعدادهم الكثيفة لم يتراجعوا قط . فلم ير بأسا من إعطاء القوط الشرقيين منطقة فريجيا ليقيموا فيها بآسيا الصغرى كما أقر أشقاءهم الغربيين من قبل على الإقامة فى البلاد التى استقروا فيها ؛ وسمح لهم بحكم أنفسهم وفق قوانينهم الخاصة وأن يكون لهم جيش قائم بذاته ومنفصل عن الجيش الرومانى له قيادته الوطنية تحت اسم « حلفاء » وفضلا عن ذلك فقد أغدق عليهم الرواتب الضخمة وعين بعض نبلائهم فى المنـــاصب العليا[2] ومثل هذا الوضع الذى آل إليه أمر القوط الغربيين وبعض الشرقيين ، يختلف عن غيرهم من القبائل الجرمانية التى تغلغلت فى أراضى الإمبراطورية الرومانية مثل عنصرى الشاماثيين ،والهاتوريين (**Chamaves & Hauttuariens**) وهذان العنصران من فروع الفرنجة . استقرت هذه القبائل وآثرت الاندماج فى المجتمع الرومانى حيث تفرغت لزراعة الأرض التى حصلت عليها ، كما خضعت للقوانين الرومانية واستعملت اللغة اللاتينية الدارجة[3] .

وظل القوط على عهدهم وولائهم للإمبراطورية خلال عهد تيودسيوس ، رغم وجود بعض التذمر بينهم ، ولكن المحقق أنه طالما كان ثيودسيوس على قيد الحياة فإن القوط ظلوا على الطاعة أو ما يقرب منها ، كما أنهم ساعدوه فى حروبه التى انتصر فيها على منافسيه فى الغرب ماكسيموس

---

(١) **Hodgkin, I, pp. 320 - 323.**

(٢) **Hodkin, I, pp. 311 - 313 ; Lot, p. 81.**

(٣) **Lot p. 63.**

وإيوجين . ومن أبرز قواده من القوط الغربيين جايناس (Gaïnas) وألاريك ، وعرف عن ثيودسيوس إنه كان شديد الحرص على موادعه القوط حتى أنه انتقم لمقتل بوثريك (Bothéric) الضابط القوطى بأن أقام مذبحة فى أهل تسالونيكا مما حمل القديس أمبروز (Amproes) فى ميلان على أن يحرم الإمبراطور من الكنيسة إزاء هذه الفعلة الشنعاء ولم يظفر الإمبراطور بالعفو إلا بعد اعتذار .

وربما ظل القوط على ولائهم وموادعتهم للإمبراطورية لو كان خلفاء ثيودسيوس بمثل سعة أفقه وشجاعته وكياسته ولو لم يكن وزراؤهم ومستشاروهم قصيرى النظر تغلب عليه الأنانية والحماقة .

ابراهيم على طرخان